دراسة عن رسالة البابا جريجوري السابع

الى

العاهل الحمادي الناصر بن علناس

في عام 469 هـ - 1076 م

سامي سلطان سعد

حفظ لنا الزمن رسالة وجهها البابا جريجوري السابع (1073 - 1085 م) لأمير دولة بني حماد الناصر بن علناس (1062 - 1088 م)، بتاريخ عام 1076 م، هي أقدم اتصال عرف بين البابوية الرومانية وحكام المغرب الاسلامي.

وفي الحقيقة فان هذه الوثيقة فريدة من نوعها بين سائر الرسائل البابوية الأخرى لهؤلاء الحكام، ليس فقط من حيث تاريخها السابق لتاريخ أقدم هذه الرسائل بنحو قرن وربع القرن[1]، ولكن أيضا من حيث محتواها وأسلوب صياغتها.

ولعل من المناسب، لسهولة دراستها، أن نعرض نصها مترجما الى اللغة العربية[2] على النحو التالي :

«من الأسقف جريجوريوس، خادم خدام الله، الى الناصر ملك اقليم موريطانيا السطيفية في افريقيا. تحية وبركة رسولية.

لقد بعثت لنا نبالتك في هذه السنة نفسها رسائل لكي نقوم بسيامة القس سرفانُوس أسقفا وفق الشريعة المسيحية، وهذا ما عجّلنا بعمله، لأن طلبك بدا لنا عادلا ومثاليا.

ولقد أرسلت الينا أيضا هدايا. ومراعاة للقديس بطرس أمير الرسل، ومحبة

فينا، حرّرت المسيحيين المحتجزين أسرى لديكم، كما وعدت بأن تطلق سراح الأسرى الآخرين.

انه، بكل تأكيد، الله، خالق جميع الأشياء، والذي من غيره لا نستطيع أن نفعل شيئا ، ولا أن نفكر في الخير، هو الذي ألهم قلبك هذا الصنيع الطيب.

ان الله، الذي يهدي كل انسان آت الى هذا العالم، قد أضاء ذهنك لهذه الغاية. ان الله، كلّي القدرة، الذي يريد أن يكون جميع الناس سالمين، وأن لا يهلك أحد، لا يستحسن، في الحقيقة، شيئا فينا أكثر من أن يحب الانسان الناس بعد حبه لله، وأن ما لا يريد أن يفعله الآخرون به لا يفعله هو بهم.

وعلى ذلك ينبغي أن تكون المحبة، بيننا، نحن وأنتم بوجه خاص، أكثر مما تكون بيننا وبين الشعوب الأخرى، طالما أننا نؤمن ونعترف - بطريقة مختلفة في الحقيقة - بأله واحد نسبّح بحمده، ونجلّه كل يوم خالقا للأجيال وحكام هذا العالم. وكما قال الرسول[3] : «هو سلامنا، هو جعل الاثنين واحدا».

وأيضا، فانه عندما علم الكثيرون من أشراف روما، عن طريقنا، بالنعمة التي منحك اياها الله، أعجبوا بطيبتك وبفضائلك وأذاعوها للجميع. ومن بين هؤلاء اثنان من المقربين الينا - البيريكوس Albercius كنكيوس Cincius - تربيا معنا، تقريبا، منذ صباهما في القصر الروماني. وهما اذ يرغبان كثيرا في الوصول الى صداقتك ومحبتك، وفي أن يقوما باغتباط بخدمتك في دوائرنا، بما يروق لك، يرسلان اليك رجالا من لدنهما، سوف تعرف عن طريقهم، كم هما يعتبرانك حكيما وشهما، وكم هما يريدان، ويستطيعان، أن يقوما بخدمتك بسرور. ونحن، ، اذ نوصي بهؤلاء الرجال لدى فخامتك، نطلب أن توليهم جلّ اهتمامك - من واقع محبتك لنا، ومن أجل مكافأة ذلكما الرجلين على ثقتهما - بنفس المحبة التي ترغب دائما في التعبير عنها نحوك ونحو ذويك.

ان الله يعرف جيدا أننا نعزك باخلاص من أجل مجده، واننا نبتغي سلامتك ومجدك في الحياة الحاضرة والمستقبلة. ونحن أيضا نطلب من الله، بالشفاه، ومن القلب، بأن يتلقاك بنفسه، بعد حياة طويلة، في حضن الطوباوي الأقدس الأب ابراهيم.»

كان ذلك نص رسالة البابا جريجوري السابع للناصر بن علناس ولعل أول ما يلفت النظر فيها أنها ذات طابع متفتح القلب. ويعتقد دي ماس لاتري بأنه ربما لا يوجد بابا آخر عبّر عن ودّه لأمير مسلم بمثل هذا التدفق. ويقول بأن بعض المجاملات أظهرت للخلفاء أو للأمراء المسلمين في الرسائل الموجهة اليهم من قبل بابوات روما للشكر أو لطلب مكرمة، ومع ذلك احتفظ البابوات في هذه الرسائل بلهجة التعالي والتحذير، ولم يبدوا فيها سوى القليل من الود، وهذا نجده أيضا في رسائل الأمراء المسلمين للبابوات، ولكنه لا يكاد يحس به في العلاقات بين جريجوري السابع والناصر بن علناس.

وواضح من الرسالة بأن المبادرة جاءت من جانب الناصر بن علناس، فهو – الى جانب أنه طلب بنفسه من البابا بأن يقوم بسيامة القس سرفاندوس أسقفا للمسيحيين في عاصمة بلاده، وهو أمر كان يمكن أن يتركه لأبناء الطائفة المسيحية في امارته – قام كذلك، وبدافع من نفسه، بتحرير الأسرى المسيحيين في دولته، ووعد بان يستمر في السير على هذا الدرب.

ومن الممكن أن نقبل هنا ما قاله المؤرخ كريسنيان كورتوا Christian Courtois بأن الأسرى المحررين لا يمكن أن يكون عددهم كبيرا نظرا لضعف الامكانيات المتاحة وقتذاك للحماديين للايقاع بأسرى مسيحيين في البحر أو أثناء غزو بلادهم[4]، وربما كان قلة عددهم ما شجع الناصر على أن يبذل الوعد باطلاق سراح من يقع تحت يده من أسرى آخرين.

ولكن من الصعوبة بمكان أن نوافق على ما ذهب اليه هذا المؤرخ من أن الناصر انما حرر هؤلاء الأسرى المسيحيين للاسهام في بناء عاصمته الثانية بجاية، أكثر مما حررهم لا بدافع الرغبة في عمل شيء محبب لدى البابا[6]، وذلك لأن هذا العمل الانشائي يمكن أن يقوموا به أيضا وهم أسرى، وبخاصة اذا عرفنا بأن الأسرى كانوا عادة يرغمون على القيام بمختلف الخدمات الى حين افتكاكهم أو موتهم[7].

ومهما يكن من أمر ذلك، فقد استقبل البابا جريجوري السابع مبادرة الناصر بن علناس بحماس شديد. ولكن يظهر له أنه لا يقل عنه تسامحا كتب اليه في رسالته – وهو نفسه البابا جريجوري السابع الذي وصف المسلمين، في رسالة وجهها لرئيس أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص Cyriacus بتاريخ 16 سبتمبر سنة 1073 م[8]،

أي قبل ثلاث سنوات فقط، بأنهم كفار أو وثنيون[9]، وبأنهم امة فاسدة ومنحرفة[10] – بأنه يعتبر أن المسلمين والمسيحيين أمة واحدة، طالما أن الجماعتين يعبدان الها واحدا ولو بطرق مختلفة. وامعانا منه في المجاملة، لم يستخدم اسم المسيح – عليه السلام – اطلاقا في رسالته كلها من أولها الى آخرها، مقتصرا على ذكر الله – جل جلاله – وهو ما لم يحدث أبدا في أية رسالة بابوية أخرى لعاهل مسلم أو غير مسلم، وذلك حتى لا يوجه فكر الناصر الى الاختلاف الرئيسي القائم بين العقيدتين الاسلامية والمسيحية حول طبيعة السيد المسيح يضاف الى ذلك أن البابا جريجوري السابع استشهد في خاتمة رسالته بابراهيم الخليل – عليه السلام – الذي يقدسه المسلمون والمسيحيون على حد سواء، وتحاشى كلية ذكر عبارات التبشير الصريح التي نضحت بها سائر الرسائل البابوية الأخرى لحكام المغرب الاسلامي[11].

ولنا الآن أن نتساءل عن الدوافع الكامنة وراء قيام الناصر بن علناس بمبادرته لعقد صلة صداقة مع الكرسي البابوي في روما، والقبول الحماسي من جانب البابا جريجوري السابع لهذه المبادرة. وفي الحقيقة فاننا لا نملك شيئا محققا يمكن أن يميط اللثام عن سر تصرف الناصر بن علناس. ولقد ذهب المؤرخ ماس لاترى الى القول بأن هذا السر ربما يكمن في الأصل البربري والمسيحي لابن حماد واسرته[12]، وهو قول بني على فرض خاطئ بأن الحكام المولودين من أمهات مسيحيات أجنبيات لا بد وأن يكونوا متعاطفين أكثر من غيرهم مع الغرب المسيحي، وكذا الحكام المنحدرون من أصل بربري أخذا في الاعتبار ذلك الماضي المسيحي للمغربين الأدنى والأوسط، حيث كان أجدادهم يعيشون تحت حكم الأجانب، رومانا كانوا أم وندالا أم بيزنطيين، وعلاقات الود بين بعض هؤلاء الأجداد – وهم بحسب ذلك الفرض جميعا مسيحيون – وبين الكرسي البابوي، وبخاصة منذ عهد البابا جريجوري الأول، الشهير بالقديس جرجوري العظيم (590 – 604 م)، هذا اذا أردنا أن نغض الطرف عما يحمله قول ماس لاتري بين طياته من أهداف استعمارية واضحة قوامها تخريب اتحاد عنصري الأمة الجزائرية التي كانت تحتلها بلاده فرنسا وقت تأليفه كتابه[13]، وذلك اكراما وتقديرا لما أبداه من عدم تعصب وانصاف في مواضيع أخرى من كتابه، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بتسامح الاسلام وعدالته.

وعلى كل حال فان ماس لاتري لم يقطع في الأمر، واستدرك قائلا بأنه لا يجرؤ على التأكيد على فروض مشابهة لهذا الفرض. وقد لاحظ المؤرخ كريستيان كورتوا بدوره ان ما أبداه الناصر بن علناس من تسامح نحو المسيحيين يمثل واقع السياسة التي انتهجها، بدرجات متفاوتة، جميع حكام المغرب الاسلامي. ولكن الأمر الفريد، عند هذا المؤرخ، هو أن يتصل الناصر بالبابا، ولم يجد كورتوا ما يعلل به هذا التصرف من جانب الأمير الحمادي سوى قوله باحتمال عدم وجود أساقفة في امارته يتولون هذه المهمة، بعد أن أصبحت قرطاجة ـ مقر مقدم أساقفة المغرب جميعا ـ في يد غرمائه الخراسانيين حكام تونس، أو باحتمال التأثر بذيوع شهرة البابوية منذ منتصف القرن الميلادي الحادي عشر [14].

ونحن في الحقيقة نعرف، بمقتضى أقوال ابن خلدون، بأن قوات تميم بن المعز، أمير المهدية، حاصرت مدينة تونس لمدة أربعة أشهر من عام 458 هـ ـ 1065 م الى أن صالحه حاكمها عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، وهو من رجال الناصر، «واستقام على طاعته فأفرج عنه، ولم يزل قائما بأمره الى أن هلك سنة ثمان وثمانين» [15] (488 هـ ـ 1095 م). ومع ذلك فان من الصعوبة علينا بمكان أن نقبل ما افترضه المؤرخ كورتوا من انقطاع الصلة بين هيئة رجال الدين المسيحي في الدولة الحمادية، وبين مقدمهم رئيس أساقفة قرطاجة، بسبب انقطاع ولاء حاكم تونس الخراساني ـ الذي تدخل قرطاجة أيضا في نطاق حكمه ـ لسيده أمير بجاية الناصر بن علناس الحمادي. ويكفي للتدليل على دوام هذه الصلة القول بأن البابا جريجوري السابع بعث برسالة كتبها في شهر يونية عام 1076 م، الى رئيس أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص، صحبة سرفاندوس نفسه، عند عودته الى بلاده بعد أن نصبه البابا في روما أسقفا على مسيحي بجاية، وان البابا طلب في هذه الرسالة من قرياقص القرطاجي أن يتعاون مع سرفاندوس في اختيار قس ليقوم البابا في روما بسيامته أسقفا ثالثا معهما فيصبح في الامكان سيامة أي أسقف جديد تحتاجه كنائس المغرب في المغرب نفسه وفق القانون الكنسي الذي يشترط أن تتم هذه العملية على يد ثلاثة أساقفة على الأقل كما يفهم من الرسالة [16].

وبالمثل فانه ليس من السهل علينا الموافقة على قول هذا المؤرخ كريستيان كورتوا باحتمال تأثير شهرة البابوية على الناصر بن علناس، لأننا لا نرى في هذه

الشهرة ما يمكن أن يهم الناصر أو يفيده في شيء. انه لمن الواضح فيما يبدو لنا أن الناصر الحمادي كان يهدف من وراء مبادرته الى تحقيق فائدة ما لدى البابا جريجوري السابع أكثر بكثير من أن يقوم البابا بتعيين القس سرفاندوس أسقفا لمسيحي عاصمته بجاية [17]، والا فقد كان يكفي أن يطلب من البابا تنصيب هذا الأسقف، فيستجيب البابا مرحبا لطلبه الذي هو في صالحه قبل أن يكون في صالح الناصر، ولم يكن هناك ما يدعو الأمير الحمادي الى افتكاك الأسرى المسيحيين في بلاده، ويقدم الوعد بتحرير كل أسير مسيحي آخر يقع تحت يده في المستقبل، مع ما يكلفه ذلك من مال وفير يدفعه لمن قاموا بأسرهم.

فهل كان الناصر يهمه كثيرا أن يعيّن أسقف في عاصمته بجاية ليجعل منها قرينة أو منافسة في هذا الشأن لمدينة المهدية عاصمة قريبه وعدوه تميم بن المعز [18]، وليثبت بأنه نجح في تحقيق ما عجز عن تحقيقه الأمير الخارج عن طاعته عبد الحق بن خراسان في تونس؟ [19] أو هل كان الناصر بن علناس يطمع في أن يمده البابا جريجوري السابع بمرتزقة مسيحيين يتغلب بمساعدتهم على عدوه تميم بن المعز الزيري، أمير المهدية، وعلى العرب الهلالية المسيطرين على أجزاء واسعة من المغرب الأوسط، وعلى المرابطين في المغرب الأقصى اذا حاولوا اجتياح أملاكه، وهو أمر كان يتوقعه ولا شك بالمغرب الأوسط، وان البابا تفهم هدف الناصر، عن طريق سرفاندوس، الذي يكون الناصر قد أفصح له عن رغبته، وطلب منه توصيلها للبابا، فأرسل له البابا البعثة التي تكلم عنها في رسالته لتتدبر الأمر معه باسم الشريفين الرومانيين البيريكوس Albericus وكنكيوس Cincius ـ وليس باسمه البابوي ـ حتى لا يتسبب في اثارة تميم فيتخلى عن سياسة التسامح التي اشتهر بها مع المسيحيين في امارته. ربما، ولكن الأقرب الى الاحتمال، في نظرنا، ان يكون الناصر بن علناس قد مدّ ببصره الى أبعد من مصلحته الشخصية وذلك أنه في نحو الوقت الذي اتخذ فيه الناصر مبادرته لدى البابا جريجوري السابع كان هذا البابا قد تحرك نحو كل من اسبانيا المسيحية وصقلية النورماندية بما يضر بالمصالح الاسلامية في هذين البلدين. ففي اسبانيا تم الاتفاق بين البابا جريجوري السابع وملك قشتالة وليون، الفونسو السادس ابن فرناندو الأول (اذفونش فرذلند حسبما تسميه المصادر العربية، 465 ـ 495 هـ ـ 1072 ـ 1101 م) على أن تستبدل كنائس هذه المملكة طقوسها القوطية التي

درجت عليها بالطقوس الرومانية تحت رئاسة بابا روما الروحية [20]. وقد اتخذ هذا الاجراء كخطوة أولى لكي تعطي البابوية تأييدها ومساعدتها الصليبية للملك ألفونسو في حروبه ضد المسلمين فيما عرف باسم حركة الاسترداد Reconquista ، وهو ما تم بالفعل، حتى أن الحروب التي دارت بعد ذلك في شبه الجزيرة أصبحت من نوع الحروب الصليبية التي تقدم لها البابوية بركاتها ومساعدتها وترسل لتعزيزها المقاتلين الصليبيين من دول أوربا الأخرى، وليس أدل على ذلك من أن البابا أوربانوس الثاني Urbanus (1088 – 1099 م) عندما دعا لاعداد أول حملة صليبية لتخليص بيت المقدس من المسلمين (الأتراك السلاجقة) عام 1095 م رفض طلب بعض الاسبان الاشتراك فيها قائلا بأن مكانهم هو قتال المسلمين في اسبانيا [21].

هذا فيما يتعلق باسبانيا، وعن جزيرة صقلية فقد أجرى البابا جريجوري السابع – على الأقل منذ أن صدر قرار الأساقفة الألمان وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة المجددة الألماني هنري الرابع (1065 – 1106 م) بعزله عن كرسي البابوية في 24 يناير عام 1076 م [22] – اتصالات مع حاكمها النورماندي روجر بن تانكري Tancred وأخيه روبرت جيسكارد Robert Juiscard ، حاكم جنوب ايطاليا، بهدف التوصل الى التصالح فالتحالف معها في سبيل تأليف جبهة أيطالية قوية قادرة على الوقوف في وجه أطماع الامبراطور هنري الرابع في ايطاليا [23]. ومن المعروف بأن نورمان جنوب ايطاليا كانوا قد بدأوا منذ عام 1060 م في جزيرة صقلية، بقيادة الامير روجر نائبا عن أخيه روبرت كيسكارد، من يد حكامها المسلمين، وتوصلوا في عام 1072 م الى فتح مدينة بالرمو واتخذوها عاصمة لهم، ولكن كانت هناك أجزاء في وسط وجنوب الجزيرة لا تزال ، وقت اجراء اتصالات المصالحة بين البابا والنورمان في مطلع عام 1076 م، تحت السيادة الاسلامية، ولم يتم للنورمان الاستيلاء عليها الا تدريجيا وحتى عام 1091 م 484 هـ [24]، وكانت المصالحة البابوية النورماندية وما يتبعها من تحالف تشكل – ولا شك – عامل قوة خطير لصالح روجر ضد المسلمين في الجزيرة.

فإذا كان من غير المتعذر بل وكان من المتوقع أن تصل أخبار هذا النشاط البابوي الضار بالمسلمين في اسبانيا وصقلية الى الناصر بن علناس، وذلك لقرب

البلدين من بلده، واتصال سكانهما الدائم بأهل شمال افريقية بما في ذلك امارة بني حماد في المغرب الأوسط، وكذا وصول التجار والعبيد الأوروبيين باستمرار الى بجاية الحمادية، ووجود رجال دين مسيحيين في بجاية والقلعة يرجح أنهم على علم باخبار البابا رئيسهم الروحي، نقول اذا كان الأمر كذلك أفلا يحق لنا بعد ذلك أن نعتقد بأن الناصر، وقد شعر بالخطر الذي يتهدد أولئك المسلمين، أراد أن يكسب صداقة البابا جريجوري السابع لكي يهيء لنفسه الفرصة – باسم هذه الصداقة – ليتوسط لصالحهم لدى هذا البابا.

ثم أنه لماذا لا يتجه تفكيرنا أيضا الى أن الناصر ربما يكون قد علم – عن طريق نفس الوسائل التي علم بها بنشاط البابا في اسبانيا وصقلية – بالمفاوضات التي جرت بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع في الفترة الواقعة بين عامي 1073 و1075 م، وتواصلت بصفة خاصة في عام 1075 م بهدف محاولة اصلاح ذات البين بينهما، والتحالف من أجل اعداد حملة صليبية ضد الأتراك السلاجقة – وهم مسلمون – انتقاما منهم للهزيمة الفادحة التي ألحقوا بها قوات الدولة البيزنطية في موقعة ملاذكرد – أو منزكرت Manzikert – في 26 أوت عام 1071 م، واجتياحهم للأرض المقدسة [25]، ثم علم بالصراع الذي تفجر بعد ذلك في أواخر عام 1075 م [26]، بين القطبين المسيحيين – أي البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع – وبان الامبراطور قد عزل البابا في 24 يناير عام 1076 م [27]، فأراد – أي الناصر – أن يعقد صلة صداقة مع البابا في ذلك الوقت تعزيزا لموقفه في النزاع وتشجيعا له على مواصلة تحديه للامبراطور، اعتقادا منه بأن هذا الانشقاق بين زعيمي المسيحية من شأنه أن يعرقل اعداد الحملة الصليبية القادرة على الحاق الهزيمة بالاتراك السلاجقة في الشرق الاسلامي، من ناحية، ويؤثر في الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا وصقلية بما لا يكون في صالح الجانب المسيحي، من ناحية أخرى.

وعلى كل حال فهذه كلها فروض واجتهادات في محاولة للوصول الى ما يمكن أن يكون دوافع معقولة لمبادرة الناصر، أما فيما يتعلق باستجابة البابا جريجوري السابع لهذه المبادرة، فهو أمر طبيعي ولا غرابة فيه، لأن البابا كان يهمه – ولا شك – تعيين

أكبر عدد ممكن من الرؤساء الدينيين المسيحيين في العالم الاسلامي ، وبخاصة اذا كان تعيينهم يتم بطلب من الحكام المسلمين ليضمن تعاونهم معهم.

واذا كان البابا قد غلّف موافقته بالكثير من عبارات الود والمجاملة التي ـ كما قال المؤرخ دي ماس لاتري[28] ـ لم يسبق لبابا آخر أن وجهها لعاهل مسلم، فما ذلك الا انعكاس للفرحة البالغة التي غمرته بسبب المبادرة، ليس فقط لأنها الأولى من نوعها ـ حيث لم يسبق أن طلب حاكم في المغرب الاسلامي من البابا أن يعين أسقفا على رعاياه المسيحيين ـ ولكن أيضا لأنها جاءت في وقت شهد انهيارا سريعا في صرح الكنيسة المغربية تمثل في نقصان عدد مقدميها وتدهور أخلاق جمهورها[30] ، كما أنها جاءت بعد ثلاث سنوات فقط من تعرض الأسقف الوحيد الذي كان قد تبقى وقتذاك من هؤلاء المقدمين ـ وهو أسقف قرطاجة المدعو قرياقص ـ للمعاملة المهينة التي بلغت حد ضربه بالمقارع والزج به في السجن على يد ابن خراسان أمير تونس، لأنه رفض أن يستجيب لطلبه بتنصيب أسقف على كنيسة تونس، بحجة أن ذلك يتعارض مع قانون الكنيسة الرومانية الذي يشترط ضرورة أن تتم سيامة الأسقف على يد ثلاثة أساقفة وليس بيد أسقف واحد، ولا يوجد في بلاد المغرب، وقتذاك سوى واحد غيره يحمل هذه الرتبة الكنسية[31] . هذا ويمكن أن نضيف الى ذلك أيضا رغبة البابا في تشجيع الناصر على مواصلة سياسة التسامح مع المسيحيين في امارته، والوفاء بوعده باطلاق سراح الأسرى الآخرين الذين قد يجلبون الى هذه الامارة، فضلا عن منع رعاياه من الحاق أي ضرر بالسفن أو السواحل المسيحية.

على أن بعض المؤرخين ـ ومنهم المؤرخ دي ماس لاتري[32] والمؤرخ بارجيس Bargès[33] يرون بأن البابا جريجوري السابع ربما كان يهدف م وراء ذلك الى الاعداد لتنصير الناصر، أو الى اقرار تعاون ما معه لصالح مسيحي اسبانيا وصقلية، كما لا يستبعدون أن يكون لتصرفه صلة بتشكيل الحلف الذي هاجم مهدية تميم بن المعز الزيري في عام 1087 م.

وليس من شك في أن هؤلاء المؤرخين ، عندما فكروا في الهدف الديني لدى جريجوزي السابع ، كان يدور في خلدهم فحوى الرسائل البابوية التي عرض فيها من أرسلها من البابوات صراحة على بعض عواهل مراكش من الموحدين ـ ومنهم

الخليفة أبو محمد عبد الواحد الرشيد[34] (630 ـ 640 هـ ـ 1232 ـ 1242 م) والخليفة أبو الحسن علي السعيد[35] (640 ـ 646 هـ ـ 1242 ـ 1248 م) أن يعتنقوا الديانة المسيحية وربما كانوا على حق فيما اعتقدوا ، ولكن رسالة البابا جريجوري السابع تبدو خالية من أي اشارة تنم عن أي اتجاه لديه الى ذلك (اللهم الا اذا أعطينا كلمة (المستقبلة) في عبارة (أننا نبتغي سلامتك ومجدك في الحياة الحاضرة والمستقبلة)، ومعنى الحياة الأخرى، وليس معنى مستقبل أيام الأمير الحمادي في الحياة الدنيا.

أما فيما يتعلق بالدوافع السياسية التي تكلم عنها دي ماس لاتري، ومن نحا نحوه، فهي ـ كما هو واضح ـ غامضة وبعيدة الاحتمال. وتفسير ذلك أن القائلين بها لم يوضحوا ، في الشق الأول منها، شكل التعاون الذي قالوا بأن البابا أراد اقامته مع العناصر لصالح مسيحيي صقلية واسبانيا. ولا يعقل، بطبيعة الحال، أن يكون قد جال بخاطرهم أن السذاجة قد بلغت بالبابا جريجوري السابع الدرجة التي تجعله يفكر في أن يطلب من الناصر بن علناس الحمادي التوسط لدى المسلمين في صقلية فيسلموا ما تبقى من جزيرتهم للمحتل النورماندي من غير مقاومة ، ولدى المسلمين في الاندلس فيستسلموا للقوات المسيحية في بلادهم من غير قتال.

فهل عنوا أن البابا فكر في أن يقدم للناصر المساعدات العسكرية التي تشجعه على مواصلة حربه ضد تميم بن المعز الزيري الى الشرق منه فيعوقه عن أرسال مجاهديه الى صقلية، وعلى شن الحرب على دولة المرابطين الى الغرب منه لمنعهم من التدخل لصالح المسلمين في اسبانيا؟

اذا كان ذلك ما عنوا فمن الممكن قبوله، ولو بتحفظ شديد، بالنسبة لتميم، ولكنه مرفوض تماما بالنسبة للمرابطين لأن جوازهم الأول الى الاندلس كان بزعامة أميرهم يوسف بن تاشفين (454 ـ 500 هـ ـ 1062 ـ 1106 م) في عام 479 هـ ـ 1086 م[36] ، أي بعد نحو عشر سنوات من تاريخ رسالة البابا للناصر، ولم يعرف عن المرابطين (وكذا الحماديين والزيريين) أنهم تدخلوا عسكريا لمساعدة مسلمي اسبانيا قبل هذا التاريخ. وكيف يتسنى لهم ذلك وقد كانوا وقتذاك في دور تأسيس دولتهم بالمغرب؟

وبالمثل، فان من المتعذر الموافقة على ما جاء في الشق الثاني من هذه الدوافع القائل باحتمال وجود صلة تربط تصرف البابا بتشكيل الحلف الذي هاجم المهدية – عاصمة تميم – في عام 480 هـ – 1087 م، وذلك بسبب طول المدة الزمنية التي تفصل بين تاريخي الرسالة البابوية للناصر وهذه الحملة، وهي مدة تصل الى نحو الاحدى عشرة سنة، ولان المصادر التاريخية المعاصرة للحملة لا تشير من قريب أو بعيد لأية علاقة للبابا جريجوري السابع بها، وذكرت صراحة بأن البابا الذي دعا لها وأسهم في اعدادها هو فيكتور الثالث (1086 – 1087 م)[37]، خليفة جريجوري السابع.

وفي الحقيقة فان جريجوري السابع لم يكن وقت تحرير رسالته للناصر الحمادي في يونيه 1076 م في ظروف تسمح له بالعمل الصليبي أيا كان نوعه بسبب انشغاله – كما سبق وأشرنا – في صراعه المصيري مع الامبراطور الالماني هنري الرابع، ومحاولته تكتيل القوى الايطالية وراءه[38] للانتصار له عسكريا اذا فكر الامبراطور في ارسال حملة عسكرية المانية – وهو ما كان يتوقعه البابا – للانتقام منه وتنفيذ قرار عزله بالقوة.

وليس أدل على ذلك من أن البابا جريجوري السابع، ما أن تفاقمت الأزمة بينه وبين هنري الرابع في أواخر عام 1075 م، حتى أوقف مساعيه الرامية الى اعداد الحملة الصليبية التي كان قد دعا اليها في عام 1074 م ضد الأتراك السلاجقة لصالح الدولة البيزنطية، والتي كان قد تفاوض بشأنها مع هنري الرابع قبل تردي العلاقة بينهما، وذلك بالرغم من الأهمية الفائقة لهذه الحملة في حال نجاحها، بالنسبة للبابا شخصيا، اذ أنها ترفع من قدره، وتكسب الى صفه أمبراطور بيزنطة ميخائيل السابع دوكاس (1071 – 1078 م)، وربما أيضا والد زوجة ابن هذا الامبراطور، روبرت جيسكارد أمير دولة النورمان في جنوب ايطاليا[39]، الذي لم يكن في ذلك الوقت على وفاق مع البابا، وكلها أمور تساعد البابا ولا شك في تحقيق زعمه، بسبب نزاعه الحقيقي مع الامبراطور الالماني هنري الرابع، بالزعامة في أوروبا الكاثوليكية، وبالنسبة للكنيسة لأنها تساعد على تحقيق حلم بابوات روما في اعادة الوحدة بين الكنيستين الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية البيزنطية تحت زعامة البابا، وهو ما عجز عن تحقيقه هؤلاء البابوات منذ أن وقعت القطيعة بين الكنيستين

في عام 1054 م، وآخرهم البابا اسكندر الثاني (1061 – 1073 م) السلف المباشر للبابا جرجوري السابع[40]، وهو أيضا ما هدف اليه جريجوري السابع من وراء دعوته للحملة الصليبية[41]، وأفصح عنه صراحة في الرسالة التى زف فيها نبأ الحملة للامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع حين أكد له بأنه سوف يأتي على رأس هذه الحملة. ويعقد مجلسا في القسطنطينية لتسوية المشكلات التي لا تزال قائمة بينهما لتوحيد الكنيستين[42].

وبعد، فإذا كانت الأزمة التي نشبت بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع قد عطلت مشروع الحملة الصليبية ضد الأتراك السلاجقة بفوائده الجمة التي ذكرناها للبابا والكنيسة التي يرأسها فليس من المقبول منطقيا أن تسمح هذه الأزمة للبابا جريجوري السابع أن يسعى لتنفيذ مشروع صليبي ضد مدينة المهدية لا فائدة حقيقية ترجى من ورائه له ولكنيسته، ولا سيما أن تميم بن المعز صاحب المهدية كان معروفا بتسامحه مع المسيحيين في بلاده[43]، ثم انه كان قد توقف منذ عام 1075 م – أي قبل عام من تاريخ كتابة الرسالة البابوية للناصر بن علناس الحمادي – عن ارسال نجداته لمساعدة مسلمي صقلية في مقاومة الفتح النورماندي لجزيرتهم[44]، وعقد في نفس العام – أي في عام 1075 م – معاهدة تحالف وصداقة مع الأمير روجر بن تانكريد الحاكم النورماندي للجزيرة، لكي يتفرغ لحربه مع قبيه الناصر بن علناس، ولاسترجاع ملك أبيه الضائع في امارته من أيدي العرب الهلالية وحلفائهم وبعض المستغلين على المدن[45]، يضاف الى ذلك ان النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا – وهم الأكثر تضررا من نشاط البحرية الزيرية في عهد تميم – كانواوقتذاك على خلاف مع البابا جريجوري السابع الذي لم يتورع في مارس1074م عن اصدار قرار الحرمان ضد زعيمهم في جنوب ايطاليا روبرت جيسكارد[46]، وان أحد أبرز حلفاء البابا في ايطاليا، وهو جيزولف امير سالرنو Gislof of Salerno (1052 – 1077 م) كان على علاقات تجارية طيبة مع حكام شمال افريقيا الى درجة أنه كان يهاجم سفن جنوة وبيزة التي تسير بحذاء الساحل الغربي لايطاليا قاصدة شمال افريقيا بقصد التهجم والاعتداء[47].

وهكذا فان من المتعذر التسليم بمجموعة الدوافع السياسية التي قال دي ماس

لاتري، ومن نحا نحوه من المؤرخين ، بأنها كانت وراء روح المودة والتسامح التي أبداها البابا جريجوري السابع في رسالته للناصر بن علناس. وليس من شك في أن اتجاه فكرهم اليها مبعثه الشك في مهمة المبعوثين الذي أوصى بهم البابا أمير بجاية، وذكر له في رسالته بأنهم موفدون من قبل اثنين من أشراف روما المقربين اليه، وهما ألبيريكوس وكينكيوس، لتبليغه شخصيا تقدير هذين الشريفين له على جميل صنيعه مع المسيحيين في امارته، ورغبتهما «في أن يقوما باغتباط بخدمتكم على النحو الذي يرضيك في دوائرنا.» In partibus nostris

ويعلق المؤرخ كريستيان كورتوا على وصول هؤلاء المبعوثين بقوله: «من غير الرغبة في وضع أي شك حول قوة عاطفة البيريكوس وكينكيوس فان من الصعوبة بمكان أن نقبل بأنهما كانا يكنان للناصر من الود الى الدرجة التي جعلتهما لا يستطيعان مقاومة ارسال وفد الى افريقية ليطلعاه على ذلك الود. اني أفضل من ناحيتي أن أرى في هؤلاء الرجال ـ الذين أوصى بهم البابا بهذا القدر من الحماس ـ أعضاء بعثة شبه رسمية هدفها سياسي أكثر منه عاطفي.»»

ان كورتوا يرى بأن البابا أرسل هؤلاء المبعوثين في مهمة تخصه هو شخصيا، ولكن «دبلوماسيته» شاءت بأن يرسلهم باسم اثنين من بطانته، وليس باسمه البابوي، فاذا أصابوا نجاحا في أداء مهمتهم أبدلهم بقصّاد بابوين مسؤولين لاتمام الامر، أما اذا فشلوا فلا شيء يكون أسهل عليه عندئذ من التنصل منهم كلية. ويختم كورتوا تعليقه بقوله : «ان جريجوري السابع لا يريد أبدا، تهور أخرق أو باتخاذ تدابير تكشف عن نواياه بوضوح، أن ينفر عاهلا متسامحا مع المسيحيين في افريقية ومع الكنيسة الرومانية»(48)، مثل الناصر بن علناس الحمادي. ولكن ما هو هذا الأمر الجلل الذي يريد البابا ـ كما يقول كورتوا ـ جس نبض الناصر بشأنه متسترا وراء رجلين من بطانته؟ لم يقدم لنا المؤرخ كورتوا الجواب الشافي على هذا السؤال، ولكنه ذكر بأن البابا والناصر كليهما كان لهما عدو مشترك هو عبد الحق بن خراسان حاكم تونس الذي كان البابا يعتبره عدوا لأنه أهان كبير أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص في عام 1073 م، ويعتبره الناصر ايضا عدوا له لأنه خرج عن طاعته، وبحسب أقوال كورتوا أيضا فان البابا جريجوري السابع ـ الذي دخل منذ أن عزله الامبراطور الالماني

هنري الرابع في 24 يناير عام 1076 م في مفاوضات مصالحة مع النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا للوقوف معه في وجه هذا الامبراطور وأطاعه في ايطاليا ـ رأى ان من مصلحته ان يطول أمد الحرب الدائرة وقتذاك ، أي وقت أن كتب البابا رسالته للناصر في يونيه عام 1076 م، بين الناصر وتميم بن المعز الزيري أمير المهدية. لأن من شأن هذه الحرب ـ التي لا بد وأن يكون البابا قد عرف بها من سرفاندوس ـ أن تضعف من قوة النشاط الزيري ضد الحكم النورماندي في صقلية وجنوب ايطاليا مما يسمح لهؤلاء بتوجيه كل قواهم العسكرية لخدمة المخالفة ضد الامبراطور(49).

على أن هذا المؤرخ كورتوا لم يذكر لنا شيئا عن وسائل البابا لمساعدة الناصر على تأديب أمير تونس ومواصلة حربه ضد حاكم المهدية. ونحن لا نرى بأن من بين هذه الوسائل عرض المساعدات العسكرية، ليس فقط لأن البابا جريجوري السابع لم يكن وقتذاك في ظروف تسمح له بذلك بسبب جفوته مع الامبراطور الالماني هنري الرابع، كما سبق وذكرنا، ولكن أيضا لأن مفاوضات الصلح بينه وبين النورمان لم تكن وقتذاك قد انتهت الى نجاح حتى يؤدي لهم هذه الخدمة، بل يمكن القول بأنها فشلت استنادا الى أقوال مؤرخ معاصر، هو ايميه راهب دير مونتي كاسينو(50) (Aimé du mont Cassino) ذكر صراحة بأن أمير دولة النورمان في جنوب ايطاليا ، روبرت جيسكارد، وحليفه ريتشارد أمير كابوا Richard de Capoua قاما، في يونيه عام 1076 م، أي في نفس الشهر الذي كتب فيه البابا رسالته للناصر بن علناس، بحصار مدينة سالرنو، وحاكمها جيزولف حليف البابا جريجوري السابع، ثم هاجما الأملاك البابوية نفسها بعد ذلك بقليل. وعلى كل حال فان مثل ذلك العرض لا يمكن أن يثير مخاوف البابا من أن يؤدي الى غضب الناصر منه، ومن ثم فضّل أن يقدم عن طريق بعثة تتكلم باسم اثنين من حاشيته وفق نظرية كريستيان كورتوا. ان الشيء الوحيد الذي يتوقع البابا أن يرفضه الناصر بغضب يسبب احراجا له، وربما انتكاسا في سياسة الناصر التسامحية ازاء المسيحيين في امارته، هو محاولته تبشيره بالدين المسيحي، وهو أمر نستبعد أن يقدم البابا عليه لأنه يتعارض مع روح التسامح التي كتب بها رسالته للناصر، ولان ليس من المعقول أن يتخذ مثل هذه الخطوة مباشرة بعد أول اتصال به من أمير مغربي مسلم أظهر طواعية من تلقاء نفسه أقصى درجات التسامح مع المسيحيين في بلاده ، مما ينفر منه هذا الأمير، ولا يشجع أي

أمير مسلم آخر على أن يحذو حذوه.

اننا نرجح بأن يكون على رأس المهام السياسية للبعثة الرومانية، اذا كان لها مهام سياسية أصلاً، التفاهم مع الناصر بن علناس حول وساطة يقوم بها هذا الأمير الحمادي لدى عبد الحق بن خراسان، حاكم تونس، بشأن اسقفية تونس التي أهين بسببها رئيس أساقفة قرطاجة قرياقص، قبل ثلاث سنوات، أو أن يقوم الناصر بالرغم من اضطراره الى اعلان تأييده لتميم بن المعز تحت ضغط الحصار – ومساعدتهم في الوصول معه الى تسوية للمشكل تقوم على أساس عدم ممانعة البابا في تعيين أسقف على تونس، على أن يكون خاضعا لرئاسة أسقف قرطاجة حسب التقليد القديم.

ويوحي بهذا الاحتمال، الذي نفضله على غيره من الاحتمالات الأخرى، ان البابا جريجوري السابع طلب من رئيس أساقفة قرطاجة، المدعو قرياقص، في رسالة بعث بها اليه صحبة سرفاندوس عند عودته الى بلاده من روما، بأن يختار – بالتعاون مع سرفاندوس – قسا يقوم البابا في روما بسيامته اسقفا ثالثا معهما في المغرب[51]، مما يبعث فينا الاعتقاد بأن البابا أراد أن يحقق رغبة ابن خراسان ولكن وفق قانون الكنيسة الرومانية، وفضّل بأن يتوجه وفد روماني الى افريقية لانهاء الأمر مع حاكم تونس، بمساعدة الناصر، على أن يتكلم الوفد لا باسم البابا، ولكن باسم اثنين من حاشيته كوسيطين، اظهارا لعدم رضائه من اهانة رئيس أساقفة قرطاجة على يد ابن خراسان. ثم أن هناك احتمالا آخر يمكن اضافته هو نية البابا جريجوري السابع في أن تقيم البعثة المذكورة أيضا. بجس نبض الناصر في امكانية أن يقوم البابا بدور الوساطة في الصلح بينه وبين تميم – وهو أمر في استطاعة البابا القيام به عن طريق قصّاده أو أساقفته في افريقية أو حتى عن طريقة أعضاء البعثة أنفسهم – فيهيء البابا لنفسه بذلك ودا أو نفوذا أدبيا لدى الأميرين المتسامحين يستغله لصالح المسيحيين في جزيرة صقلية متى آن الأوان وتم الصلح مع النورمان من جهة، ولصالح تعزيز مركز الكنيسة الافريقية بما في ذلك محاولة اعادة الأسقفية في المهدية الى سابق عهدها من جهة أخرى.

اننا نعرف من فحوى رسالتين بعث بهما البابا ليون التاسع Léon IX (1049

– 1054 م) في ديسمبر عام 1053 م – 445 هـ)، احداهما الى أسقف يدعى توما Thomas يعتقد بأنه أسقف قرطاجة، والثانية الى أسقفين آخرين في افريقية يسمى أحدهما بطرس والآخر حنا[52]، بأن هؤلاء الأساقفة الثلاثة قدموا شكوى للبابا ضد تصرفات أسقف المهدية – التي تسميها الرسالتان جوّمي Jummi نسبة الى الاسم القديم للمدينة وهو جمّة[53] – متهمين اياه بأنه ادعى لنفسه حق التقدم الأعلى على جميع الأساقفة في تلك البلاد وعددهم خمسة. وقد ندّد البابا بادعاءات أسقف المهدية مؤكدا على ضرورة التمسك بالتقليد الكنسي الذي يعطي الرئاسة العليا على أساقفة افريقية لأسقف قرطاجة بالرغم من هجرة الجانب الأكبر من أهل مدينته عنها وتحولها الى خرائب، وعلى أن حق التقدم على الأساقفة في كل دائرة كنسية على حدة تحدده أقدمية التعيين بين الأساقفة في الدائرة وليس أهمية أو نفوذ المدينة مقرا لأسقفية. Non secundum poterntiam alicujus civitatissed secundum tempus suae ordinationis.)

ولا يجوز لأي مقدم على دائرة كنسية أن يتصرف فيما يتعلق بعقد المجامع الكنسية المحلية أو اجراء مراسم تعيين أساقفة جدد في دائرته من غير الحصول على موافقة أسقف قرطاجة.

ويمكن القول، على ضوء هذا الرد البابوي، بأن ادعاءات أسقف المهدية – الذي لا تشير الرسالتان البابويتان المذكورتان الى اسمه – مرجعها أن رأى بأن مدينته وصلت وقتذاك الى مركز الصدارة بين مدن الدولة الزيرية في المغرب الأدنى نتيجة ما حل بهذه الدولة، منذ عام 443 هـ – 1051 م، من خراب على يد العرب الهلالية وغيرهم من طوائف العرب الأخرى الذين رمى بهم الفاطميون في مصر، زمن خليفتهم المستنصر بالله، بلاد المغرب تأديبا لها على خروجها عن الطاعة على يد المعز بن باديس الزيري، وبلوغ هؤلاء العرب أبواب مدينة القيروان نفسها وضاحيتها المنصورية (صبرة) مقر حكومة المعز بن باديس، بحيث أصبحتا قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيديهم، في الوقت الذي سيطر على المدن الزيرية الرئيسية الأخرى متغلبون من أهلها أو من العرب الوافدين، ولم ينج من ذلك سوى مدينة المهدية التي نعمت، تحت ادارة ولي العهد تميم بن المعز المعين عليها في عام 445 هـ 1053 م،

بالأمان خلف أسوارها القوية[54]. واستقبلت لهذا السبب، في أغلب الظن، أفواجا من الفارين من المناطق الأخرى التي اجتاحها العرب الهلالية[55]، وفيهم، ولا شك، مسيحيون انضموا الى الطائفة المسيحية المقيمة بالمدينة. فتضخم عددها بما يكفي لتشجيع أسقفها على اتخاذ خطوته.

ونحن لا نملك ما يشير الى موقف أسقف المهدية من الحكم الذي أصدره البابا ليون التاسع في غير صالحه، ولكن نرجح بأنه تمرد عليه، لأنه كان يعرف ـ ولا شك ـ منذ البداية، بحكم منصبه الديني، اتجاهات هذا البابا الاصلاحية ومواقفه العدائية من عدم الانضباط بين رجال الدين وعدم التقيد بالقرارات البابوية السابقة، ولا يتوقع منه أن يقره على ادعاءاته الخارجة على تلك القرارات[56] وأيا كان الأمر فان الرسالة التي كتبها البابا جريجوري السابع لأسقف قرطاجة، قرياقص، في يونيه عام 1076 م، وأرسلها اليه صحبة سرفاندوس أسقف بجاية، تبين بوضوح لا لبس فيه بأن بلاد المغرب، لم يكن بها وقتذاك سوى هذين الأسقفين، أي أسقف قرطاجة قرياقص وأسقف بجاية المعين حديثا في روما سرفاندورس، مما يدل على أن مدينة المهدية أصبحت في ذلك التاريخ ـ أي في يونيه 1076 م ـ خالية من وجود أسقفية معترف بها من قبل البابوية[57]، وذلك بالرغم من عدم انقراض طائفتها المسيحية، التي شهد المؤرخون، وعلى وجه الخصوص ابن الأثير[58] وابن خلدون[59]، بوجودها في عام 543 هـ ـ 1148 م عند استيلاء نورمان صقلية على مدينة المهدية، والتي لا بد وأن كان عدد أفرادها وقتذاك كبيرا حتى أن المحتلين النورمان عينوا لها أسقفا يحمل لقب أسقف افريقية[60]. (Episcopus Africanus)

ربما كان أسقف عام 1053 م لا يزال في عام 1076 م حيا وانما متمردا وخارجا عن طاعة البابوية، ومن ثم لم يعترف البابا جريجوري السابع في رسالته بوجوده[61]. أما اذا كان قد توفي خلال فترة الثلاثة والعشرين عاما التي تفصل بين وقت قيامه بحركته ووقت ان كتب جريجوري السابع رسالته، وظل منصبه شاغرا لم يشغله أحد بعده، فان من الممكن القول باحتمال أن تكون بلاد المغرب وقت وفاته خالية من وجود الاساقفة الثلاثة اللازمين شرعا لتعيين من يخلفه في المنصب.

ولكن هناك احتمال آخر يجب أن يؤخذ في الاعتبار وهو أن يكون تميم بن

المعز بن باديس قد فضل ان يدير الشؤون الدينية للطائفة المسيحية في عاصمته المهدية رجل دين صغير لا يخضع للبابوية التي كان ولا شك يعتبرها ـ بقطع النظر عما عرف عنه من تسامح ـ عدوة له وللمسلمين منذ أن عقدت في عام 1059 م ـ في عهد البابا نقولا الثاني (1059 ـ 1061 م) اتفاقية مع الزعيم النورماندي روبرت جيسكارد نصت على منحه، فضلا عن اقليمي ابوليا وقلورية بجنوب ايطاليا، جزيرة صقلية اذا استولى عليها من المسلمين[62]، وهو ما تم بالفعل على يد أخيه روجر بعد معارك طويلة، ضد المسلمين المقيمين بالجزيرة والذين كان يرسلهم لنجدتها تميم نفسه، بدأت عام 1062 ـ وهو العام الذي تولى فيه تميم الحكم خلفا لوالده المعز بن باديس ـ وانتهت في عام 1091 م[63].

اننا نقول بأن في جميع هذه الأحوال يتحتم على البابا جريجوري السابع أن يتخذ المبادرة لاعادة المياه الى مجاريها بين البابوية وعاهل الدولة الزيرية اذا أراد الحصول على موافقته على تعيين أسقف تابع لكنيسة روما في المهدية، فماذا اذا كان قد انتهز فرصة طلب الناصر بن علناس منه تعيين سرفاندوس أسقفا على بجاية عاصمة الحماديين، ففكر أيضا في كل من تونس عاصمة الخراسانيين والمهدية عاصمة الزيريين، ومن ثم أرسل مع رده على الناصر بعثة تحاول، كما سبق وذكرنا، تسوية الأمر مع حاكم تونس بمساعدة الناصر، وتعرض، في نفس الوقت على الناصر، باسم الشريفين البيريكوس وكنكيوس، أن يتوسط البابا في الصلح بينه وبين تميم، وهو كان يرغب فيه بالفعل كلا العاهلين المغربيين وسبق لهما أن سعيا اليه من قبل وبمبادرة من الناصر[64]، إن البابا حين يكتب في رسالته للناصر بأن الشريفين المذكورين اذ يرغبان «في أن يقوما باغتباط بخدمتك في دوائرنا»، بما يروق لك، يرسلان اليك رجالا من لدنهما، سوف تعرف على طريقهم كم هما... يريدان ويستطيعان، أن يقوما بخدمتك بشرور.» انما يهدف الى تشجيعه على الموافقة على ما يعرض عليه هؤلاء المبعوثين، فاذا كلّلت مساعي البابا بعد ذلك بالنجاح يكون من ناحية قد أدى للناصر الخدمة التي تكلم عنها في رسالته ولا تسمح له ظروفه الصعبة في ايطاليا بتقديم غيرها، ومن ناحية أخرى قد حسّن علاقاته مع تميم بما يخدم احياء الأسقفية الرومانية في المهدية، ووقف حركة المقاومة الاسلامية الزيرية للمد التوسعي المسيحي النورماندي في صقلية.

وعلى كل حال، فنحن لا نملك أية وثيقة تخبرنا بما تم بعد كتابة هذه الرسالة. حقيقة نعرف بأنه تم في العام التالي لتاريخ الرسالة - أي في عام 1077 م - 470 هـ - عقد الصلح بين الناصر وتميم [65] وبأن «كاتدرائية» بالرمو تضم رفات رجل دين اسمه كوزماس، توفي عام 1109 م (503 هـ) - أي قبل نحو أربعين سنة من سقوط مدينة المهدية تحت الاحتلال النورماندي الذي تم في عام 543 هـ - 1148 م - ومع ذلك كان يحمل نفس اللقب الذي حمله أساقفة المدينة في ظل هذا الاحتلال وهو لقب أسقف افريقية [66]. ولكن هل يمكن القول بأن لذلك أية صلة برسالة جريجوري السابع للناصر، وبالبعثة التي تكلمت عنها هذه الرسالة؟ ومن يدري في ظل غياب الوثائق؟ اننا لا نعرف حتى ما اذا كانت الرسالة قد وصلت بالفعل الى الناصر في بجاية صحبة البعثة المذكورة أم انها لم ترسل أصلا.

سامي سلطان سعد

Grégorie VII annonce à Anzir ou En-Nacer, prince hammadite, roi de la Mauritanie sitifienne, que sur sa demande il a consacré évêque le prêtre Servand; il le remercie de ses bonnes dispositions à l'égard des Chrétiens de ses Etats, et lui fait savoir que deux nobles Romains, Albérie et Cencius, heureux de ce qu'ils ont appris de sa bienveillance, lui envoient des messagers pour l'assurer de leur désir de lui être en tout agréables.

Lable, *Concil.*, t. X, col. 146; Epist., lib. III, ep. 21; Migne, *Patrol. lat.*, t. CXLVIII, p. 450.

Gregorius, episcopus, servus servorum Dei, Anzir, regi Mauritanie Sitiphensis provinciae(1), in Africa, salutem et apostolicam benedictionem.

Nobilitas tua hoc in anno litteras suas nobis misit quatenus Servandum presbyterum episcopum secunddum Christianam constitutionem ordinaremus; quod quia petitio tua justa et optima videbatur, facere studuimus; missis etiam ad nos muneribus, Christianos qui apud vos captivi tenebantur, reverentia beati Petri principis apostolirum et amore nostro, dimisisti, alios quoque captivos te dimissurum promisisti. Hanc denique bonitatem, creator omnium Deus, sine quo nibil boni facere, imo nec cogitare possumus, cordi tuo inspiravit ipse qui illuminat omnem hominem venientem in hunc mundum, in hac intentione mentem tuam illuminavit. Nam omnipotens Deus, qui omnes homines vult salvos facere et neminem perire, nihil est quod in nobis magis approbet, quam ut homo post dilectionem suam hominem diligat, et quod sibi non vult fieri alü non faciat. Hanc itaque caritatem nos et vos specialibus nobis quam ceteris gentibus debemus, qui unum Deum, licet diverso modo, credimus et confitemur, qui eum creatorem saeculorum et gubernatorem hujus mundi quotidie laudamus et veneramur. Nam sicut apostolus dicit: «Ipse est pax nostra qui fecit utraque unum. ü Sed hanc tibi gratiam a Deo concessam plures nobilium Romanorum per nos cognoscentes, bonitatem et virtutes tuas omnino admirantur et praedicant. Inter quois duo familiares nostri, Albericus et Cincius, et ab ipsa pene adolescentia in Romano palatio nobiscum enutriti, multum desiderantes in amicitiam et amorem tuum devenire, et de his quae

(1) Bougie, fondée par En-Nacer en 1067, devint, en 1090, à la place d'El-Kala, la nouvelle capitale des princes hammadites, dont l'héritier abdiqua l'an 1153 en faveur des Almohades. La dénomination du roi de la *Mauritanie sitifienne* que le saint-siège donnait à Anzir n'avait pas de rapport géographique rigoureux avec l'ancienne division de l'Afrique romaine, puisque Bone et Constantine, villes de Numidie, faisaient partie du royaunme des Hammadites (Ibn-Khaldoun, *His. des Berbères*, trad. de M. de Slane, t. II, p. 52.).

in partibus nostris placuerit tibi libenter servire, mittunt ad te homines suois, ut per eos intelligas quantum te prudentem et nobilem habeant, et quantum tibi libenter servire velint et valeant. Quos magnificentiae tuae commendantes, rogamus ut eam caritatem, quam tibi tuisque omnibus semper impendere desideramus, eis pro amore nostro et recompensatione fidelitatis predictorum virorum impendere studeas. Seit enim Deus quia pure ad honorèm Dei te diligimus et salutem et honorem tuum in praesenti et in futura vita desideramus. Atque ut ipose Deus in sinum beatitudinis sanctissimi patriarcha Abrahae post longa hujus vitae te perducat corde et ore rogamus.

حواشي البحث :

---

(1) أقدم رسالة تالية لها بعث بها البابا أنوسنت الثالث للعاهل الموحدي ابي يوسف يعقوب المنصور في 8 مارس عام 1198 م. انظر النص اللاتيني في :

De mas Larrie, Traités II (Documents), pp. 8-9.

(2) انظر النص اللاتيني للرسالة في :

Migne: Patrologia latina, t. CXLVIII, p. 450; De ma latrie: traités II, pp. 7-8; Caspar: Das register gregors VII, dans Monumente Jermaniae historica, Epistulae selectae t. III, Fesc, 1920, pp. 287--288.

De mas latrie: Traités I (introduction), pp. 22-23, Mesnage: Le christianisme en Afrique, Déclin et Extinction, pp. 209-210 (1915), Bargès: aperçu de l'eglise episcopale de Tlemcen, pp. 18-20 (1848); Golvin: le Maghreb central à l'époque des Zirides, pp. 152--153.

أما أدق ترجمة حسب ما اتضح لنا بعد الاطلاع على النص اللاتيني فقد قام بها :

Christian Courtois: Grégoire VII et l'Afrique du Nord, ap. Revue Historique t. CXCV, (1945), Revue Historique TCXCV, 1945 pp. 99--101.

وفيما يتعلق بالترجمات الى العربية نجد أنها اعتمدت أساسا على الترجمة الفرنسية الغير دقيقة ، للبارون دي ماس لاتري سواء مباشرة مثل الاستاذ اسماعيل العربي (دولة بني حماد ص 179 ـ 180)، أو عن طريق مترجم فرنسي آخر عنه كما فعل د. رشيد بورويبة الذي ترجم عن :

Idris (H.R.): La berbèrie orientale sous les Zirides Xe-XIIe s., t. II, pp. 591-593.

(3) يقصد بولس الرسول الذي يعود اليه الفضل في ادخال المسيحية في العالم الاغريقي، وله عدة رسائل موجهة الى كنائس تلك البلاد، وهي تشكل جانبا هاما من كتاب العهد الجديد الذي اشتهر باسم الانجيل.

(4) انظر : De mas Latrie: Traités I, p. 23.

(5) انظر : C. Courtois: op. cit.; p. 104.

(6) ارجع الى رأي هذا المؤرخ في : Ibid, p. 210.

(7) ارجع الى :

Brunschvig: La berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe s., TI, 1940, p. 450.

(8) ارجع الى النص اللاتيني للرسالة في :

De mas latrie: Traités II, doc. pp. 5-6 isis fraternitatis tuae litteris, fraternam de molestüs que a paganus et a pseudo-filüs écclesiae tuae tibi inferuntur...

وترجمتها : عرفت من رسائلك، أخي المبجل، المضايقات التي لحقت بك من جانب الوثنيين (يقصد المسلمين ومن أبناء الكنيسة الضالين (يقصد بعض أفراد من مسيحي تونس اشتكوا أسقف قرطاجة لحاكم تونس).

(10) in medio nationis pravae et perversae

(11) ارجع الى رسالة البابا أنوسنت الثالث لعاهل الموحدين أبي يوسف يعقوب، المنصور بتاريخ 8 مارس عام 1198 في (De mas latrie, Traités II, pp. 8-9) ورسالة البابا جريجوري التاسع للعاهل الموحدي عبد الواحد الرشيد بتاريخ 27 ماي 1233 في: ibid وخاصة رسالة البابا أنوست الرابع الى عاهل الموحدين أبي احسس السعيد بتاريخ 31 أكتوبر 1246 في (ibid, p. 14) وارجع أيضا الى رسالة باللغة العربية أرسلها الخليفة الموحدي أبو حفص عمر المرتضى بن السعيد الى البابا أنوسنت الرابع بتاريخ 18 ربيع الأول عام 648 هـ = 10 جوان 1250 م. لأن فيها تتضح محاولات البابا لتنصير خليفة الموحدين. وقد نشر الرسالة مع التعليق المناسب المؤرخان يوجين تيسيران Eugène Tisserant وغاستون فييت Gaston Wiet Hesperis, t. VI, An. 1926, pp. 27-53

(12) انظر : De mas latrie, traités I (Introduction), p. 23

(13) نشر كتابه لأول مرة في عام 1866 م.

(14) Courtois, op. cit., pp. 210-211.

(15) ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر، مجلد 6 ص 335.

(16) ارجع الى النص اللاتيني للرسالة في : De mas Latrie, traités II, (Doc.) p. 6
وانظر الترجمة الفرنسية في : Courtois, op. cit., p. 217.

(17) لم يأت في رسالة جريجوري السابع للناصر بن علناس ما يشير الى مركز أسقفية سرفاندوس. ولكن يتضح من رسالة أخرى كتبها البابا في نفس الوقت (يونيه 1076 م) بأن هذا المركز هو بجاية، والرسالة موجهة الى الطائفة المسيحية وقساوستها في بجاية، وفيها أخبرهم البابا بأنه عين عليهم سرفاندوس اسقفا، وحثهم على طاعة هذا الاسقف الجديد الذي اختاروه هم بأنفسهم لهذا المنصب، وعلى التحلّي بالأخلاق القومية في حياتهم.
وقد جاءت مقدمة الرسالة في نصها الأصلي كما نشره كاسبار (نفس المصدر، ص 286)، على النحو التالي،

Gregorius, Episcopus, Servus Servorum dei, clero et populo Buzeae, (id est jppona) en mauritania sitifense, id est in africa, constitutis, salutem et apostolicam beneddictionem.

وترجمتها: من جريجوري، الأسقف وخادم خدام الله الى اكليروس وشعب بجاية (التي هي هبونة) في موريطانيا السطيفية، التي توجد في افريقية، سلام وبركة رسولية. على أن النص الذي نشره ماس لاتري (Traités II, p. 7) جاء خلوا من كلمة Buzae مع اقرار كلمة هبونة على النحو التالي :

Gregorius... clero et populo hipponensi, en mauritania sitifensi... etc.

وقد نحا نحوه مؤرخون آخرون منهم ديلارك (p. Delarc: saint grégoire VII et la réforme de l'eglise au XI S., t. III, p. 400 N. 2).

ويقول كورتوا، اعتمادا على كاسبار بان الدراسات التي قام بها بايتز العالم في دراسة النصوص القديمة، بأن العبارة التي جاءت بعد كلمة بجاية ـ وهي عبارة «التي هي هبونة» كتبت بيد أخرى غير اليد التي كتبت بقية الرسالة ولكن في عصرها. واذ لاحظ بأنه جرت في نفس الفترة حركة تنقلات بين مراكز الاسقفيات في شمال ايطاليا، استنتج بأن العبارة المذكورة أضيفت كدلالة على انتقال كرسي الاسقفية القديم من بونة الى بجاية العاصمة، وبخاصة أن بجاية هي التي تقع في الاقليم الذي كان يعرف قديما باسم موريطانيا السطيفية، وليست بونه أو هبونه التي تقع في نوميديا. ويعتقد كورتوا بأن ماس لاتري نقل

عن نسخة غير دقيقة للرسالة. ارجع الى التحليل القيم الذي قام بن كورتوا لهذه المسألة (210 ـ 207 .

ومن المعروف بأن كورتوا نشر بحثه في غام 1945. وقد أخذ المؤرخون الذين تعرضوا للموضوع بعده بنتيجة هذا البحث من أن المقصود بجاية وليس بونه. ومن هؤلاء المؤرخين نذكر غولفان (152 وهادي روجر ادريس . (op. cit., p. 759)..

(18) يتضح من الرسالة التي بعث بها البابا جريجوري السابع الى قرياقص، رئيس أساقفة قرطاجة، في يونيه 1076 م (De mas Latrie: traités II, p. 6) بأنه لم يوجد في بلاد المغرب وقت أن اتخذ الناصر مبادرته سوى قرياقص هذا، بمعنى أن المهدية كانت خالية من أسقفية تابعة لروما، فلربما اراد الناصر أن يجعل من عاصمته بجاية منافسة لها أو متميزة عنها في هذا الشأن.

(19) في عام 1073 م طلب حاكم تونس استجابة لرغبة الطائفة المسيحية في المدينة، من رئيس أساقفة قرطاجة أن يعين لهذه الطائفة أسقفا خاصا، فلما رفض بحاجة عدم توفر الاساقفة الثلاثة اللازمين شرعا للقيام بهذه المهمة التي به في السجن وضربه بالمقارع. وقد أرسل البابا جريجوري السابع خطابين بتاريخ 16 سبتمبر 1073 م أحدهما الى مسيحي قرطاجة يلومهم فيه لأن بعضهم كان سببا في الحادث، والثاني لرئيس الأسلقفة، واسمه قرياقص يواسيه ويشجعه بسبب ما حدث له ـ ارجع الى نص الرسالتين في :

Migne: patrol. Latin., t. CXLVIII, pp. 305-307; De mas Latrie: traités II (doc.,), pp. 5-6.

(20) انظر حسين مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، في المجلة التاريخية المصرية، عدد مايو 1950، ص 48، حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 252.
وارجع أيضا الى : Pidal (Ramon menédez): The cid and hispain, pp. 137-139.

(21) حسن أحمد محمود، المرجع السابق ص 253.، وارجع ايضا الى :
Lemann (A.): L'origine de l'idée de la croisade, dans Hespéris 1937, p. 139.

(22) انظر : Geoffrey Barraclough: A La papauté au moyen-agé, p. 83.
وارجع أيضا الى الترجمة الانجليزية لرسالة الامبراطور هنري الرابع الى البابا جريجوري السابع المتضمنة قرار عزله، وذلك في :
O. J. Thatcher et E. H. Mcneal, (ed.): A source book for mediaeval history, New York 1905, p. 151.

(23) انظر : Courtois: op. cit. pp. 222-223.

(24) ابن أبي دينار القيرواني (ط. 2 تونس 1387 هـ) ص 86. وهناك العديد من المصادر والمراجع المتعلقة بالفتح النورماندي لجزيرة صقلية، نحيلك للتعرف عليها الى :

F. Chalandon: Hist. de la domination Normande en Italie et en Sicile, t. I, Amari (M.,): Storia dei musulmani de Sicilia, vol. 3, Idris (H.R.): op cit., pp. 288-289, Curtis (F.): Roger of Sicily, pp. 60-66, Ge

وكمصادر نرشح :

Geoffroi malaterra: De rebus Gestis rogerii calabriae et Siciliae comitis, dans muratori: rerum Italicarum scriptores, t. V; Aimé du mont Cassin: Histoire de li normant (ed. champollion-figeac) 1835.

هذا فضلا عن مجموعة المستخرجات من المصادر العربية التي جمعها ميخائيل اماري ونشرها في كتاب خاص أعطى له عنوان المكتبة العربية الصقلية.

(25) عن هذه المفاوضات وهدفها أنظر : Geoffrey Barraclough: op cit., pp. 80-81

وعن معركة ماتريكرت 463 هـ ـ 1071 م يكفي أن نحيلك الى: ابن الأثير، الكامل، ج 10 ص 44. أنظر أيضا:

Michael psellus: The chronographia (trans. by E.R.A. Sewter), London 1935, pp. 86-88.

علما بأن مؤلف هذا الكتاب (بسيللوس) كان بمثابة الوزير الأول للامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع دوكاس الذي تلى عام 1071 م خلفا للامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس أسير الاتراك في ملاذكرد. أنظر :

Auguste Bailly: Byzance, p. 268.

(26) انظر : Geoffrey Barraclough: op cit., p. 83.

واقرأ الترجمة الانكليزية لنص الرسالة شديدة اللهجة التى أرسلها البابا للامبراطور في ديسمبر عام 1075 م وذلك في : Thatcher et mc neal: op cit., p. 146.

(27) انظر الترجمة الانكليزية للرسالة التي بعث بها الامبراطور للبابا يعلنه فيها بقرار فصله في :

Thatcher et mc neal: op cit, p. 151.

(28) انظر: De mas Latrie, traités I p. 22.

(29) انظر الرسالة التي كتبها البابا في يونيه 1076 م لرئيس أساقفة قرطاجة، قرياقص De mas latrie trait II, p. 6. وفيها يقول «وصل الى مسامعنا بأن افريقية، التي يقال بأنها واحدة من أجزاء العالم، والتي كان بها قديما ـ منذ أن ازدهرت المسيحية فيها ـ عدد كبير من الأساقفة لادارتها، أصبحت اليوم مصابة لدرجة أنها لم تعد تملك الأساقفة الثلاثة اللازمين لسيامة أسقف». ولاحظ بأن هذه الرسالة كتبت بعد سيامة سرفاندوس أسقفا لبجاية، بمعنى أن قبل تعيينه لم يكن في افريقية سوى أسقف واحد هو قرياقص.

(30) اقرأ نص الرسالة التي كتبها البابا جريجوري السابع في 16 سبتمبر عام 1073 م لاكليروس وشعب قراطاجة (يقصد الطائفة المسيحية بالمدينة)، والرسالة التي أرسلها هذا البابا في نفس اليوم لقرياقص، وذلك في : De mas latrie: traités II, pp. 5-6.

(31) ارجع الى نص الرسالتين المشار اليهما في الحاشية السابقة.

(23) انظر: De mas latrie: op cit., p. 23.

(33) انظر : Bargès: Aperçu de l'église d'Afrique, pp. 22-23.

(34) ارجع الى نص الرسالة في : De mas latrie: traités II, p. 10.

(35) ارجع الى نص رسالة البابا في : Ibid: pp. 14-15.

(36) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس ص 105، ابن الخطيب، الحلل الموشية ص 22. المراكشي، المعجب ص 190_191.

(37) ارجع الى:

Pierr Diacre: chron. carin, dans P.L., t. CLXXIII, col, 808, apud. Courtois: op cit., p. 224; Malaterra IV, 3 dans muratori: R.I.S., t. VI, pp. 86-87; Annales pisani, ap. Muratori, pp. 6-7

وهناك الكثير من المصادر العربية التي أشارت الى الحملة النورماندية الأولى على المهدية عام 480 هـ ـ 1087 .

وكأمثلة ارجع الى : ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ص 160، الأندلسي، الحلل السندسية 241، ابن عذارى، البيان المغرب ج 1 ص 301، التيجاني، الرحلة ص 331_332. ومن المفيد قراءة ما جاء بهذا الخصوص في :

De mas latrie: traités I, pp. 29-34; Lewis (A.): Naval Power and trade in the mideterranean, A II, 500-1100 (princeton University Press 1951), pp. 232-233.

(38) ولهذا دخل مثلا في مفاوضات للصلح مع نورمان جنوب ايطاليا وصقلية، انظر:

Courtois, op cit, pp. 222-223

وقد استطاع البابا كسب المدن الكبرى في شمال ايطاليا وامارة تسكانيا ـ انظر:

Grant (A.H.): A history of Europe, part. II, (The Middle Ages), p. 266.

(39) في عام 1073 م تزوج قسطنطين ابن الامبراطور ميخائيل السابع من هيلانة ابنة جيسكارد برعاية البابا جريجوري السابع ـ انظر :

Anna commena: The Alexiad (trans by E.A.S. Dawes) London 1967, pp. 30-31; Auguste bailly: Byzance, p. 268.

(40) انظر : Runciman (S.): The Eastern Schism, pp. 57-58

(41) انظر الترجمة الانكليزية لنص دعوة جريجوري السابع للحرب الصليبية ضد الاتراك السلاجقة عام 1074 م، في (Thatcher et mc neal: op cit, p. 512) . ومما يجدر ذكره بأن الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع علم في عام 1073 م بأن الأمير النورماندي جيسكارد يعد العدة لمهاجمة بيزنطة فكتب للبابا جريجوري السابع يطلب منه التدخل، ويلمح له في الوقت نفسه بامكانية عودة الوحدة بين الكنيستين، فكان ذلك دافعا للبابا للسّعي لدى جيسكارد حتى أقنعه بالتخلي عن أطماعه في بيزنطة ولاعلان الحرب الصليبية ضد الاتراك الذين يهددون من ناحيتهم الأراضي البيزنطية ـ انظر : Runciman: op cit, p. 59.

(42) انظر : Cambridge medieval history, vol. Iv, p. 464.

(43) يكفي ذكر شاهدين على هذا التسامح، أولها أنه أوكل الادارة المالية لمسيحي مهاجر من المشرق واسمه جورجي (جرجير) بن ميخائيل الانطاكي (انظر رحلة التيجاني ص 333). وانظر أيضا ابن عذارى البيان ج 1 ص 313، وكذلك : Idris: La Berbèrie orientale, t. I, p. 764.

وثانيهما تلك الأبيات الشعرية التي تغزل بها في احدى وصيفاته واوردهما عماد الدين الاصفهاني في جريدته، ومنها :

أليس الله يعلم أن قلبي   يحبك أيها الوجه المليح
وأهوى لفظك العذب المفدا   اذا درس الذي قال المسيح
أظاهر غيركم بالود عمدا   وودكم هو الود الصحيح
وفيكم أشتهي عيد النصارى   وأصواتا لها لحن فصيح

أنظر في ذلك :

H.H. Abdul-Wahab, dans Revue Tunisienne, No. 120 Janvier 1917, p. 312; H. R. Idris: Fêtes Chriennes célébrées en Ifriqiya à l'èpoque Ziride, ap R. Africaine, No. 440-441 (1954), pp. 273-274.

(44) آخر حملة عسكرية أرسلها تميم هاجمت ما زاره في عام 1075 م. وعندما ظهر اسطوله بعد ذلك في عام 1078 م أو في عام 1079 م أمام طاورمينه عرّف قائده النورمان بأن ليس له نوايا عدوانية ـ أنظر :

M. Amari: Storia dei musulmani di Sicilia (2e éd.), t. III, pp. 153-160; Courtois, op cit., p. 221,

وقد اعتمد المؤرخان في ذلك على عدة مصادر أهمها :

Malaterra III, 17; La chronique de Robert Victor (éd. Champollion - Figeac), t. I, p. 298.

(45) انظر A. Lewis, op cit., p. 235.

(46) انظر Courtois: op cit., p. 222; Anna Comnena: The Alexiad, pp. 33-34

(47) انظر:

W. Heyd: Histoire du commerce de Levant au Moyen-Age, Leipzig 1923, vol. I, pp. 98, 124.

(48) انظر : Courtois: op cit., pp. 105-106.

(49) انظر : Ibid, pp. pp. 219-222.

(50) انظر : Aimé du mont cassin: op cit., VIII, 13.

علما بأن كريستيان كورتوا يؤكد في (op cit., p. 223 No. 3) بأنه يقبل التاريخ الذي حدده ايمية لحصار سالرنو. أنظر Chalandon: op cit., pp. 244-245.

(51) ارجع الى نص الرسالة في :

Migne: Patrol. Lat., t. CXLVIII, p. 449; De mas Latrie: Traités II (doc.), p. 6.
De Mas Latrie, traités, p. 6.

(52) ارجع الى نص الرسالتين في: De Mas Latrie, traités, II, pp. 1-5.

(53) عن هذا الاسم ارجع الى ابن عذارى، البيان ج 1 ص 169، رحلة التيجاني ص 376ـ377، ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، تحقيق نشيده، سليماني في أطروحة لم تطبع) ص 159.

(54) ابن عذارى، البيان ج 1 ص 278ـ280، 288ـ294، ابن خلدون ، العبر مجلد 4 ص 131ـ132، رحلة التيجاني ص 328ـ329.

(55) يذكر ابن خلدون ، العبر مجلد 4 ص 132، بأن المعز بن باديس أمر أهل القيروان عندما ضيق عليها العرب الخناق بالانتقال الى المهدية للتحصين بها، وولى عليها ابنه تميما سنة خمس وأربعين (445 هـ ـ 1053 م) ، ثم انتقل اليها سنة تسع وأربعين.

(56) عن سياسة ليون التاسع الاصلاحية ارجع الى :

G. Barraclough: La papauté au Moyen-Age, pp. 74-75.

(57) ارجع الى حاشية رقم 29.

(58) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 9 ص 18.

(59) ابن خلدون ، العبر مجلد 5 ص 434. أنظر أيضا ص 437 حاشية 2 حيث أورد ما ذكره ابن الأثير في هذا الشأن.

(60) انظر : Courtois: op cit., p. 109 No. 3.

(61) تأزمت العلاقات بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية منذ ربيع عام 1053 م، وانتهى بهما الأمر الى

القطيعة في عام 1054 م ـ عن ذلك أنظر :

M. Gugie: Le schisme Byzantin, pp. 189-215; S. Runciman: The Eastern Schisme, pp. 39-49; L. Bréhiers: Le schisme au XIe S., pp. 91-125, 241.

وفي يناير 1954 وجه البابا ليون التاسع اللوم الى بطريك القسطنطينية كيرولاريوسCerularius لأنه حاول أن يكسب الى صفه بطريك انطاكية، وعن طريقه بطريك الاسكندرية.

Migne: Patrologia latina, t. CXLIII, col. 774

وانظر رسالتي كيرولاريوس لبطريك انطاكية في:

Migne: Patrologia graeco-latina, t. CXX, cols. 789-793, 815-820.

وقد توحي رسالة ليون التاسع المذكورة بأن حركة أسقف المهدية في عام 1053 م ربما كانت نتيجة مساعي من ناحية بطريك الاسكندرية كللت بالنجاح بفضل ماكان من علاقات جيدة بين الكنيستين القبطية والمغربية منذ عصر الفتوح الاسلامية، (عن هذه العلاقات أنظر :

W. Seston: Sur les derni.rs temps du christianisme en Afrique, ap. Mél. d'archéol. et d'hist., t. LIII, 1936 pp. 118-119.

وهي علاقات لا بد وأنها كانت قوية الى الدرجة التي تجعل ابن أبي دينار المتوفي بعد عام 1110 هـ ـ 1698 م يقول في صدد كلامه عن افريقية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز «وكانت بها عدة قرى عامرة بالكفر الى ما بعد المائة الرابعة، وكانت الأساقفة تأتي من الاسكندرية من قبل البطريك الذي بها الى نصارى افريقية». (المؤنس ص 138)، وان كنا نعتقد بأن الأساقفة الذين تكلم عن وصولهم الى افريقية هم على الأرجح موظفون مدنيون على شاكلة قاضي النصارى في الأندلس (عنه انظر ابن خلدون ، العبر مجلد 4 ص 390). أو صقلية قبل النورمان. (أنظر : Amari: op cit., vol. 2 p. 458.)

ولكن لنا أن نتساءل هنا هل يمكن لهذه العلاقات أن تستمر بعد استقلال بني زيري عن الفاطميين في القاهرة في عهد المعز بن باديس والد تميم؟ وهل يسمح تميم، بعد هذا الانفصال وما نتج عنه من وصول العرب الهلالية المخربين، لأسقف عاصمته بممالأة بطريك الاسكندرية الخاضع للفاطميين؟ وأخيرا هل خفي أمر الصلة هذه ـ اذاكانت موجودة ـ على بقية أساقفة افريقية الذين اشتكوا من تصرفات أسقف المهدية السلطوية لبابا روما ليون التاسع فلم يبلغوه بها حتى أننا لا نرى أن ذكر أو تلميح لهذا الأمر في رده عليهم؟ اننا لا نرى بأن حركة أسقف المهدية لها صلة بموقف بطريك الاسكندرية من الصراع بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، ولكن احتمال تمرد هذا الأسقف على حكم ليون التاسع وبالتالي خروجه على البابوية الرومانية قائم.

(62) عن هذه الاتفاقية ارجع الى : G. Barraclough: op cit., p. 78, grant (A.J.): op cit., p. 259; Chalandon: op cit., vol I, pp. 170-172.

(63) ارجع الى المصادر والمراجع التي ذكرناها في الحاشيتين رقم 37، 44.

(64) ابن الأثير ، الكامل (طبعة ليدن) ج 10 ص 32ـ33، راجع أيضا : اسماعيل العربي، دولة بني حماد ص 168ـ172، علما بأن مصادره الرئيسية بخلاف ابن الأثير ثلاثة : النويري والعبر لابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت.

(65) ابن عذارى، البيان ج 1 ص 300.

(66) انظر : Courtois op cit., p. 109, n. 3.